المكون التصويري في القرآن الكريم –دراسة في المظاهر النفسية-

Article title in Englis The pictorial component of the Holy Quran-A study in psychological manifestations-

حمادي ربيعة*

تاريخ الإرسال: 2021/02/21	تاريخ القبول: 06 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

الملخص :

مما لا جدال فيه أن أسلوب التصوير قاعدة أساسية وأداة مفضلة في التعبير القرآني، وذلك لما يتميز به من خصائص فنية تفي بحاجات النفس إلى الإقناع والإمتاع .

وقد انحازت الصور الفنية في القرآن بأنها كثيرا ما ترتاد أغوار النفس البشرية، فترسم مشاعرها رسماً حياً نابضاً بالحركة والحياة، فتضفي بأكثر من المعنى الظاهري في محاولة لمخاطبة الحس والوجدان معاً، ولا شك أن هذا الأسلوب في العرض يجعل التأثير مضاعفاً والوصول إلى الوجدان ممكناً، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وهو ما نحاول في هذه الورقة البحثية إثارته ضمن هذه الدراسة .

الكلمات المفتاحية: التعبير القرآني، الصور الفنية ، الصورة التمثيلية، المكون التصويري، أسلوب التصوير.

Abstract:

It is indisputable that the style of depiction is a basic rule and a preferred tool in the Holly Qur'an expression,due to its artistic characteristics that meet the needs of souls for persuasion and pleasure.

The artistic depiction in the Qur'an are biased by the fact that they often go into the depths of the human soul, so they draw their feelings a vibrant drawing with movement and life, adding more than the apparent meaning in an attempt to address the senses and conscience together.

المؤلف المرسل: حمادي ربيعة rabia.hammadi@univ-msila.dz

*جامعة محمد بوضياف rabia.hammadi@univ-msila.dz

A mental body or movement, and if a mental state is a painting or scene This is what we are trying to raise in this research paper.

Key words:*Quranic expression, artistic images, representational image, pictorial component, photographic style.*

*** *** ***

1-مقدمة:

من أعظم الشهادات في إعجاز النص القرآني، غنى الدراسات القديمة منها الحديثة، واستفاضت البحوث القرآنية منها واللغوية البيانية في تبيان أوجه هذا الإعجاز .فما من عصر إلا وقدمت فيه دراسات وبحوث تحاول كشف جوانب عدة وزوايا معينة من أوجه إعجازه التي لا تفنى ذخائرها ولا تبيد.

ولأن وجوه إعجاز النص القرآني كثيرة ومتعددة، ارتأيت دراسة خاصية مفضلة في أسلوب القرآن الكريم، ألا وهي التصوير باعتباره قاعدة التعبير الفني في القرآن لعرض حقائقه ومفاهيمه الدينية، بلغة تصويرية أقدر على بعث المعاني وأشد تأثيرا في النفس من اللغة التجريدية .

إن الدارس لأسلوب القرآن يجده حافلا بالصور المثيرة، التي من شأنها أن تنقل القارئ أو السامع إلى مناظر متخيلة ومشاهد مرئية، وحوادث غائبة وحاضرة، ونفوس بشرية حية، فتجعلها فوق الأوهام، وتبث فيها الروح والحياة. ومن هنا جاء التصوير القرآني ليدخل على النفس الإنسانية فيخرج مشاعرها الدفينة والحالات الشعورية في مظهر الملموس المحسوس، ويجعلها ماثلة للعيان.

وإذ أحاول في هذه الدراسة أضاءت بعض الملامح النفسية التي طوعتها طريقة التصوير الفني في الحالات النفسية رسماً حيا نابضاً بالحياة والحركة. يأسر القلوب والألباب، بوصف هذه الأداة وسيلة جمالية تؤدي إلى زيادة التأثير في المتلقين، وقد اخترت بعض بهذه الدراسة الآيات الدالة على هذه الحالات النفسية، من خلال التحليل والتفسير للوقوف على سر هذه الطريقة التي أحوال النفس وتعمد إلى كشف خفاياها في أسلوب فني ساحر.

1. جمالية أسلوب القرآن الكريم:

لعل بلاغة القرآن الكريم هي أول ما عرفه العرب من وجوه إعجازه المختلفة، وهم أهل البلاغة والحكمة ووصلوا أنفسهم إلى مستويات عالية من الفهم الجمالي هذا المستوى هو الذي جعلهم يحتارون في ماهية القرآن الكريم، فهو ليس بالشعر لأنه خال من الخيال الذي يضفي على الشعر الجمال والروعة، كما أنه لا يشبه سجّع الكهان والعرب على دراية تامة بزمزمتهم* وسجّعهم، وهذا ما جعلهم يتساءلون عن مصدر قوة الكلام وسبب تأثيره الكبير على قلوب العرب وعقولهم، ولأصدق شاهد على تأثيره على النفوس هو تأثر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)بسماع القرآن الكريم، ودخوله الإسلام بعد ذلك، وهو من الشواهد الدامغة على مدى تأثير الكلمة القرآنية في النفوس.

ولا ريب أن هذا التأثير النفسي مرده إلى جمالية النص القرآني وروعة نظمه وأسلوبه والتي لا يختلف في شأنها إثنان " فالظاهرة القرآنية ...، ربانية المصدر تتوج (الإعجاز البياني) الذي تحدى العرب بياناً وتحدى الناس شريعة ونظاماً، وهي تتحدى الجمالتين في روائعه وجماليات وجلالياته "[2].

ولعل علماء القدماء قد أفاضوا في دراسة جمالية نظمه وروعة أسلوبه مما ألفوا من مصادر وكبت نفيسة في الدراسات البلاغية القرآنية وأبدعوا في رسم بيانه ونظمه الفريد الذي سحر الألباب والعقول على مرّ السنين، ولا شك في أن إرجاع جمالية القرآن الكريم إلى مزية النظم الجميل لا تعود للجرجاني أو الجاحظ أو غيرهما من العلماء الذين يشهد لهم بجمال التأليف وحسن السبل، بل يعود إلى هؤلاء وغيرهم كثير من ترك بصمته في سجل المؤلفات النفسية التي تتلقى في نهر واحد هو حسن البيان، وجمال التأليف وجودة اللفظ وروعة التعبير.

ولا يسعنا في هذا المقام سوى الإحاطة بواحد من هؤلاء البلاغيين الذي ترك بصمته في سجل البلاغة والنظم القرآني وهو الخطابي الذي بين جمالية أسلوب القرآن وتفوقه بعرضه لثلاث مقدمات هي:

-**المقدمة الأولى**: أن إعجازه ليس خارج النص بل واقع فيه .

-**المقدمة الثانية**: أورد رأي القائلين بإعجازه من جهة البلاغة والنظم وهنا " ربما انفرد الخطابي ببيان وجه جمالي من المعجزة القرآنية: وهي لذة القلب والنفس بسماعه، وفعاليته بهما عند تلاوته يقول : قلت في إعجاز القرآن وجها آخر، ذهب عنه الناس فلا

يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم: وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القران منظوماً ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستثير به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وترجع له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها..."[3].

-**المقدمة الثالثة**: هي عجز المناوئين له عن الاتيان بمثله لبلاغته وأسلوبه ولقد أرجع الخطابي ذلك إلى:

-عدم إحاطتهم بمعجم الألفاظ كلية باعتبارها حوامل المعاني.

-عدم إدراكهم لجميع المعاني المحمولة على تلك الألفاظ .

-عدم استفائهم معرفة وجوه النظم التي تأتلف بها هذه المقومات فهم حتى وإن كانوا يستعملونها، فإنهم لم يصلوا في ذلك الحد الذي بلغه القرآن الكريم، لأنها مرتبطة بصفة العلم، ولا يمكنهم أن يصلوا إلى علم الله تعالى: " يقول الخطابي في ذلك:" وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عددا"[4].

ويأتي من الباحثين المحدثين الذين شغلوا أنفسهم بدراسة الأسلوب القرآني مصطفى صادق الرافعي الذي تحدث عن الألفاظ وحسن تأليفها في النظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية إذ يعرض سر هذا الإعجاز الرباني بقوله:" ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيء بعضها البعض، ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت اوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت شيئاً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي

قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفها بضروب من النغم الموسيقى حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها..." [5].

وفي نظرة متفحصة لما كتبه سيد قطب في كتابيه" في ظلال القرآن " و" التصوير الفني في القرآن " يتبين على أن نظريته في الجمال القرآني تجسدت في جانبها الفني وتحديدا في أسلوب التصوير حيث يقول: " فهو تصوير اللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال، والفكر والوجدان" [6].

لقد بلغ القرآن الكريم في أسلوبه العجيب الذروة في التأثير الوجداني كيف لا وهو كتاب الله المعجز الذي يسمو على سائر معجزات الأنبياء يقول نقولا حنا في كتابه" من وحي القلم" مؤكدا هذه الحقيقة:" وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين ...، هي معجزة لا كبقية المعجزات ... معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها وليس بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها " ويضيف " وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهدوحجج وبراهين لحض الخلق على اعتناقها، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس، يثبت أصولها في القلوب، أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن، فهو أعلم معلم وأهدى مبشر، وهو أصدق شاهد، وأبلغ حجة، وأدمغ برهاناً...، وهو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي المنظورة المحسوسة في كل زمان..." [7].

2. ماهية التصوير الفني:

يعتبر التصوير في اللغة وجه من أوجه جمالها، وهذا النوع من التعبير عرفه العرب في الجاهلية والإسلام، وما خلفوه من أشعار يشهد على أنهم استخدموه دون أن يكثروا منه، "ويبدوا أن للبيئة الطبيعية التي عاشوها ولدرجة الثقافة التي حصلوها، ولواقع الحالة الاجتماعية فيما بينهم أثر مباشر في عدم اعتمادهم التصوير قاعدة للتعبير وفي عدم استفادتهم من الخصائص الفنية الذاتية للغة العربية" [8].

وقبل الولوج إلى مفهوم التصوير الفني في القرآن وآراء الدارسين القدماء منهم والمحدثين بخصوصه، وجب قبل ذلك التطرق إلى مفهوم الصورة بإيجاز حتى تنجلى دلالتها وتتضح أهميتها كحجر أساس لأي عمل فني، ولعل ثمة أراء كثيرة استعرضها أسلافنا القدماء بخصوص المناحي البيانية والبلاغية والأسلوبية للصورة، وسنعرض في هذا المقام رأيين فقط لهؤلاء على سبيل الإيضاح والإفادة .

3. مفهوم الصورة عند القدماء:

3-1- رأي عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): يستعرض الجرجاني مفهوم الصورة من خلال نظريته في النظم إذ يقول:" أنه ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل تناسقت دلالاتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل...، إنه نظير كل يقصد به التصوير...، والكلام على جنس المزيه، وأنها من حيز المعاني... وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنيك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك"[9] وهي إشارة لطيفة إلى أهمية التخييل في إخراج الصورة وجعلها أقرب إلى الواقع وأقدر على الكشف عن دقائق الأمور.

ويعرض في موقف آخر تأثير المشهد الحي الذي يكون أوقع وأعمق في التأثير في وجدان المتلقين وأفكارهم على السواء يقول" ويكون للسامع ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً بأن من شأن الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة"[10] وهو تعبير عن الحس الفني الذي يلتقط فنيات البيان ويقف على روعتها وهو أمر لا يجيده إلاّ الخاصة من الناس وفقاً لقوله تعالى"﴿... **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[11].

3-2-رأي ابن الأثير(ت637هـ): تأتي أهمية الصورة عند ابن الأثير من جهة الإيقاع الموسيقي وهي فكرة أكدها فيما بعد النقاد وثبت تأثيرها على الوجدان يقول" ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل، ويميل إليه، ويكره صوت الغراب وينفر منه ؟ والألفاظ على هذا المجرى ... ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأدب نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتا منكرا كصوت حمار، وأن لها في الفم حلاوة، كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم"[12].

4-مفهوم الصورة:

4-1-عند المحدثين: لقد شكلت الصورة مفاهيم متباينة، جعلت أمر تحديدها والوقوف على ماهيتها يستعصى في كثير من الأحيان خاصة مع تحريك مجالها الدلالي إلى مجال آخر يتسم بالاتساع في المنظور النقدي الحديث والمعاصر.

فثمة من يرى أن الصورة " هي الوسيلة التي يحاول الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه"[13]، كما أنها " تجربة نفسية يعيشها المرء " [14] وثمة من يعرف الصورة على أنها كلمات تكون مشهدا أو لوحة " الصورة مشهد قوامه الكلمات"[15].

في حين يرى محمد غنيمي هلال أنه:" بإمكان إخراج الصورة من المجاز إلى الحقيقة دون أن ينقص ذلك من قيمة الصورة الفنية شيئاً، يقول" إن الصورة الشعرية لا تلزم أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية وتكون مع ذلك دقيقة التصوير"[16]. وهناك من ينظر إلى الصورة من جهة الإيقاع، كون الإيقاع ينفذ عبر السمع إلى الكيان الإنساني، فيؤثر فيه انقباضا أو انبساطاً بتحريك الوجدان وإثارة العواطف يقول إبراهيم أنيس " فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاما موسيقا، تنفعل لموسيقاه النفس وتتأثر بها القلوب "[17]، وهو ربط يضع الصورة في قالب واحد من التعبير الفني .

وفي النقد الحديث رؤية أخرى لمفهوم الصورة إذ أن" الصورة في الأدب هي الصوغ اللساني المخصوص الذي بوساطته يجري تمثل المعاني تمثلا جديدا ومبتكرا بما يحيلها إلى صور مرئية معبرة، وذلك الصوغ المتميز والمتفرد هو في حقيقة الأمر عُدول عن صيغ إحالية من القول إلى صيغ إيحائية...وما تثيره الصور في حقل الأدب يتصل بكيفيات التعبير لا بماهيات، وهي تهدف إلى تحويل غير المرئي من المعاني إلى المحسوس، وتحويل الغائب إلى ضرب من الحضور، ولكن ما يثير الاختلاف ويستدعي التأويل بقرينة أو دليل، الأمر الذي يُغذي المعنى الأدبي بفرادته المخصوصة لدى المتلقي، إذ تنحرف الألفاظ في التشكيل الصوري عن دلالتها المعجمية إلى دلالات خطابية حافة وجديدة"[18].

وبهذا ندرك ما في الصورة الفنية من الثراء والتنوع في المفاهيم جعل منها أداة طيعة وطاقة إيحائية ترمي بظلالها وإيحاءاتها في الفكر والوجدان وما تزال تهيم بها النفوس.

4-2-مفهوم التصوير الفني:

وجوه الإعجاز في القرآن لا تحصى ولا تعد، وكما أن التصوير الفني في القرآن الكريم وجه من وجوه جماله فهو أيضاً يضاف إلى وجوهه المعجزة، ومن أوائل من تنبه له وكتب عنه في العصر الحديث" عباس محمود العقاد" و" سيد قطب" الذي يُعد واضع نظرية التصوير الفني في مؤلفه " التصوير الفني في القرآن " والذي تحدث فيه عن الآفاق التي يجب الوصول إليها في دراسة هذا التصوير، وذلك حين يتجاوز الخطاب بالتجريد إلى الخطاب بالمحسوس والمرئي والمتخيل، ويؤكد أن اكتشافك كل هذا سبيل لإدراك بعض أسرار الإعجاز القرآني"... فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنساني، أو الحادث المروى، إنما هي في ألفاظ جامدة، لا ألوان تُصور، ولا شخوص تعبر إدراكنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من ألوان التعبير"[19] فالتصوير في الأسلوب القرآني ذو مساحة واسعة وآفاق فسيحة، فهو" يُعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"[20].

ويبرهن على أهمية (طريقة التصوير في التعبير) وأثرها في الأسلوب القرآني بقوله "هذه القضية لدى كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن، فالقصة ومشاهد القيامة، والنماذج الإنسانية والمنطق الوجداني في القرآن، مضافا إليه تصوير الحالات النفسية وتشخيص المعاني الذهنية، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية... تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير"[21].

وبهذا ندرك أن الخطاب في القرآن لا يتجه إلى العقل وحده، ولا يُلقى المعاني في النفس مجردة من ظلالها وإيحاءاتها " إنما اتجه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الحجة المقنعة ليغزوا مناطق الشعور الإنساني بتصويره كما غزا مناطق التفكير العقلي بحججه"[22].

ومن هنا جاء التصوير القرآني ليدخل على النفس الإنسانية من أقطارها ويناغيها بلغة حسية تزداد بها أنسا وتنبسط لها قبولا، ويخرج المعاني من صورتها التجريدية إلى هيئتها التشخيصية، ولا شك في " أن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى، من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها الوحيد"[23].

إنه النظم القرآني إذ ينقل المشاهد بأبعادها وأعماقها وحركاتها وسكناها وبنطقها، وصمتها، وبوسوسة خواطرها وهجسات نفوسها، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاث للمشهد الواحد[24].

5- مظاهر الصور النفسية:

لقد شغلت الصور النفسية حيزا واسعاً من التصوير القرآني، فأخرجت المشاعر الدفينة والحالات الشعورية في مظهر الملموس المحسوس وجعلتها ماثلة للعيان لتكون صفحات النفس بارزة تنطق بما تحب وتكره وتعكس إمارات الخوف والأمن، وتكشف عن سكونها واضطرابها، ولا شك أن هذا الأسلوب في العرض يجعل التأثير مضاعفاً والوصول إلى الوجدان ممكناً، ويجعل المسافات الطويلة مختصرة قصيرة ومن هنا " كان من الطبيعي في كتاب غايته تربية النفس الإنسانية أن يتوفر على كثير من الآيات التي تصف أحوال النفس وتعمد إلى كشف خفاياها في أسلوب فني ساحر "[25].

لقد عمدّ القرآن الكريم إلى كشف أنماط مختلفة من الصور النفسية على اختلاف أوضاعها في السراء والضراء في الشدة والرخاء، وفي الفرح والحزن، وقدمها في نماذج إنسانية حية تكاد تلمس أو ترى بالعين الباصرة، إنه " وصف ارتاد جوانب الذات البشرية فكشفها أصدق كشف بأسلوب فني رائع ونفسي شائق وتنعكس على حياة الفرد بتجاربه وملاحظاته، وتنقله إلى عالم متحرك يلمس على مسرحه مشاهد ونماذج بشرية، تحمل طابع التكرار، وصفة الديمومة في كل آن من الزمن "[26].

5-1-مظهر الصورة التمثيلية:

يُضرب المثل في القرآن الكريم غالباً عبر مظهرين اثنين، القصصي والصوري، فإذا كان الأول يضفي على النص القرآني طابعاً سردياً يدفع بالمتلقي إلى معاشيه وحيثيات الحدث بكل أبعادها الزمانية والمكانية، فإن الثاني الصوري يفضي إلى مشاهدة نماذج من الناس والأشياء من خلال الطابع التصويري الذي يرسم ملامح صورة طافحة بغنى دلالاتها يُطلق عليها الصورة التمثيلية وهي تقوم أساساً على عنصر المثل في بنائها الجمالي وتشكيلها الفني وقد أدرك علماء العربية ما في التمثيل من أسرار في إبراز المعاني، وتجسيد الأفكار، وتحريك النفوس، وجلب الانتباه، فأوجز الجرجاني بعضها في قوله:" إن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كسّاها أبهّة، ورفع من أقدراها، وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقّسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً"[27].

ولا شك أن ضرب المثل هو أحد أبرز الأساليب القرآنية في الكشف عن الناحية النفسية لنماذج من الناس والوقوف على مشاعرهم، ورصد نواياهم، وتسجيل خواطرهم، وعرض انفعالاتهم، فمن الصور التمثيلية التي ترسم النفس في قلقها الدائم وحيرتها المستمرة، صورة رجل آمن ثم كفر، اهتدى إلى موجبات الإيمان ودلائل الفطرة ثم ارتد عنها بعنف وشدة، فظل مضطرب الفؤاد لا يطمئن، متأرجح النفس لا يستقر، قال الله تعالى:﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[28].

لقد رسم النص القرآني صورة من ارتد عن الهدى، فاتبع الهوى، وآثر الحياة الدنيا في هيئة كلب يلهث في كل حال، إن طردته أو تركته[29]، إن جاع أو شبع، ففي الصورة تمثيل لنفسية رجل مُكب على أعراض الحياة الدنيا في شره، ولا يقعده في ذلك شبع ولا غنى، فكلما ركض وراء شهواته ازداد تعلقاً بها.

ويصف سيد قطب أصحاب النفوس الذين يتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى، ويبتغون من ورائه الحصول على سمعه طيبة، وصيت ذائع بين الناس، وفقاً لما جاء في قوله تعالى:﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)﴾[30].

ولقد التفت سيد قطب بحسه المرهف وبصيرته الفذة إلى هذه العلاقة فقال:" والمنّ عنصر كريه لئيم وشعور خسيس واطِ، فالنفس الإنسانية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب،أو رغبة في إذلال الأخذ، أو رغبة في إذلال الأخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء، وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا يخطر كذلك في قلب مؤمن، فالمن من ثم يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء، أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء ورغبة في رؤية أخيه ذليلاً له كسيرا لديه، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد عن الله، وأذى للأخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام"[31].

ولا يخفى ما بين قلب المنان المؤذى أو المنافق المرئي، والحجر الصلد من مطابقات دقيقة، فقلب المرائي الذي يغشاه الرياء، وهو ستار دقيق يحجب حقيقته عن الناس، يمثله صفوان يعطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن الأعين، وقلبه يشبه أيضاً الحجر الأملس في قسوته وصلابته وإمساكه عن الخير وفقدانه الإحساس فهو يُظهر نفسه على غير حقيقته على أنه يصدر عن شعور نزيه وجذور عميقة في الإنفاق، لكنه في الواقع لا يملك سوى قلب قاس لا يرق ولا يلين، وأعمال غير نابعة من أعماقه، ثم إن المطر الغزير يذهب بالتراب القليل الذي يعلو الصخرة الجرداء ولا يمكن استرداده ثانياً، فهو لا يثمر نبتاً ولا يعطي شيئاً، وكذلك الخير الصادر عن قلب يملؤه الرياء ويحجبه النفاق، ينتفى ثوابه ويفتقد أجره، لأن العطاء حينذاك لا يأخذ مكانه المناسب ولا يصدر عن طيب القلب ورضا النفس[32].

5-2-الصورة الحركية:

إن الحركة علامة على وجود الحياة في الكائنات، كما أن السكون علامة على انعدامها فالحركة حياة والسكون موت، والتصوير بالحركة نوع من التصوير له تأثيره الشعوري في النفوس وفي هذا يقول سيد قطب" يُعبر الأدب بالألفاظ والعبارات، ويُعبر بالتصوير بالألوان والخطوط، وتعبر الموسيقى بالأصوات والمسافات، ويُعبر بالنحت بالأحجام والأوضاع، وتتحكم الأداة في اختيار الموضوع، فالأدب بوجه عام يعبر عن

الحركة المتتابعة سواء أكانت حركة مادية تتم في الخارج، أو حركة شعورية تتم في الخيال وهذا يتسق مع طبيعة التعبير اللفظي بالألفاظ المتتابعة في اللسان، التي تملك وصف كل جزء من جزئيات الحركة المتتابعة في الزمان، ومن هنا كانت موضوعات الأدب، الشعر والقصة والأقصوصة والتمثيلة والترجمة والخاطرة والمقالة والبحث، كلها حركات في الطبيعة أو في الشعور"[33].

ويفيض النص القرآني بصور حركة مفعمة بالحياة تنطق بما وراءها من المشاعر الدفينة، حاملة لحشد من العواطف والدوافع، والحركة على أنواع تظل سمة من سمات التصوير في القرآن، ويرسم القرآن الكريم في أكثر من سورة حركية الهلع الذي ينتاب الكافرين يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم وهم يسرعون الخطأ مادين أعناقهم إلى داع لا يعرفون إلام يدعوهم، ولا إلى أين يسيرهم يقول سبحانه ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ(7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾[34].

تشبه الصورة الموتي حين يخرجون من قبورهم وينتشرون على الأرض وقد ملأ الرعب قلوبهم بالجراد المنتشر في كثرة الحركة، والتدافع الشديد، والتصادم العنيف، وجولان بعضهم في بعض من غير تعقل ولا تحديد وجهه المسير، وصورة الجراد المنتشر تستحضر في الأذهان أناساً جبناء حين يفرّون من الحرب فزعين خائفين، فيتفرقون على غير هدى، ويهربون على وجوههم تتبعهم الذلة والذعر"[35].

يتناول التصوير القرآني مشهد أناساً كثر يركضون سريعاً مناشدة الخوف وأعناقهم مشدودة لا تستطيع الحراك يميناً أو شمالاً، أما عيونهم فشاخصة لا تطرف من هول الموقف، وكل ذلك تم من خلال مفردة واحدة (مهطعين) التي تشير في مدلولها اللغوي إلى " مشية مذعور يسرع في خطاه وقد مّد عنقه إلى الأمام وأقبل يبصره على الخطر الذي يواجهه من غير تحريك للطرف"[36].

3-5-الصورة الوصفية:

ويقصد به أن يتم تصوير الانفعالات النفسية بأسلوب إخباري يعتمد على العرض المباشر المجرد من الحوار والحركة، وهذا الأسلوب هو الأسلوب هو الأصل في

التعبير عن الحقائق والخواطر، وهو يفيض بالعطاء في إفراز الدلالات الإضافية على النص لاستبطان المعاني الوجدانية البعيدة الغور في النفس الإنسانية.

ومما ورد في تصوير الانفعالات النفسية على طريقة الوصف المباشر قوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾[37].

يصور القرآن الكريم من خلال الوصف الخوف العالق بالنفوس في مشهد رهيب من مشاهد يوم القيامة، فيه تضييق النفوس وتخفف القلوب حتى كأنها ترتفع عن موطنها من شدة الضيق فتلتصق بالحناجر، حيث لا تخرج فيستريحوا، ولا ترجع إلى أماكنها فيستريحوا، في غصة تثقل صدورهم، وتكرب أنفاسهم، وهم على تلك الحال لا يجدون قريباً يشفق عليهم أو يبثون إليه آلامهم، ولا شفيعاً ذا كلمة مسموعة يسعى إلى تفريج الكرب عنهم" ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع" ومثل هذا التعقيب يضفي على الصورة بعدا نفسياً يتمثل في تقرير الانفراد والوحدة.

وفي مشاهد نفسه من مشاهد يوم القيامة، تلاحمت بنية الصورة في الجمع بين القلب والبصر في وصف دقيق في قوله تعالى"﴿**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**﴾[38] إذ يصف التصوير القرآني الخوف الذي يرجف أفئدة منكري البعث (يوم القيامة) على القلوب، فهي شديدة الاضطراب، لإثبات لها ولا قرار ثم يلتفت إلى الأبصار ليصور أمارات الذل البادية على ملامحها فهي ذليلة منكسرة، فوصف القلوب بالوجوف والأبصار بالخشوع وهو تعبير عن العلاقة بين القلب الخائف والبصر الزائغ من الخوف وكلها دلالات تفيض بالمكنونات والظلال النفسية .

6-الخاتمة:

لقد تناول هذا البحث المتواضع في عدد صفحاته وسطور كلماته الحديث عن بعض مظاهر الصور النفسية من خلال تقنية أو أسلوب التصوير القرآني والذي يعد أي التصوير الفني في القرآن من أقوى وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وأجملها وأجّلها لما يحويه من جمال الصورة وروعة التعبير ودقة التشخيص وعمق التأثير وما يتميز به من خصائص فنية تفي بحاجات النفوس إلى الإقناع والإمتاع .

والحقيقة أن استقصاء جميع مظاهر الصور النفسية التي استخدمها أسلوب التصوير، أمر ليس باليسر في كتاب أعجز العالمين وهو المعجزة الخالدة ليوم الدين، ومن ثم نهي لأهم النتائج التي أثمرتها هذه الدراسة المتواضعة نجملها فيما يلي:

1-التصوير الفني في القرآن الكريم أسلوب فني عجيب يشد المتلقي، ويؤثر في عقله ووجدانه هدفه تقريب المعاني للأفهام ذلك أن للألفاظ القرآنية أبعاد إلهية يعرف البشير مبتداها ولا يعرفون منتهاها .

2-التصوير الفني في القرآن وسيلة لمخاطبة حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية .

3-يفيض القرآن الكريم بالحديث عن النفس وانفعالاتها متخذا في ذلك التصوير الفني قاعدة للتعبير عنها على نحو يأسر القلب ويؤثر في الوجدان .

4-تسهم المظاهر أو الأساليب كالمثيل والحركة والوصف بوصفها وسائل فنية قادرة على التصوير الدقيق في رصد الانفعالات النفسية في التعبير القرآني .

7- قائمة المصادر والمراجع:

أولا-قائمة المصادر:

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1-ابتسام مرهون الصفار، التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد يوم القيامة، د ط، بغداد، العراق

2-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، دار القلم، بيروت،

3-ابن منظور، لسان العرب، ج6،

4-أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط2

5-أحمد نصيف الجنابي، في الرؤية الشعرية المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1،

6-بشرى موسى الصالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث د ط، دت ،

7-تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم، صالح عزيز، مجلة التربية والعلم، ع1، 2004م،

8-الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3

9-سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، د ط، د ت،

10-سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط3، 1993م،

11-سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشروق، القاهرة، مصر، ط9، 2003م،

12-سيد قطب، في ظلال القرآن،دار الشروق، ج1،

13-صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، الجزائر، 1988م،

14-عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة من أسرار التعبير القرآني، دار المريخ، الرياض، 1983م، ص05، نقلا عن المثر السائر، لابن الأثير، ج1.

15-عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في القرآن، د ط، دس

16-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

17-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2000م،
18-عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر، القاهرة،
محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م،
19-محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج1.
20-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973،
21-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة البنيوية، راجعه وعلق عليه المهندس زياد حمدان، مؤسسة أكلبت الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هت، 2004
22-منير سلطان، الصورة الفنية في شعر المتنبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2002
23-نذير الحمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم،
24-نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، دار المنايرة، جدة- السعودية، ط1، 1412هـ، 1991م،
25-نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ، 1993م.

*** *** ***

الهوامش

* الزمزمة: كلام خفي لا يسمع

2 نذير حمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، دار المنايرة، جدة السعودية، ط1، 1412هـ، 1991م، ص06.

3 نذير الحمدان، الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، ص11-12.

4الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، ص27.

5 مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة البنيوية، راجعه وعلق عليه المهندس زياد حمدان، مؤسسة أكلبت الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هت، 2004، ص181.

6سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، د ط، د ت، ص33.

7 ينظر: نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ، 1993م، ص202.

8صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، الجزائر، 1988م، ص23.

9 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2000م، ص490.

10المرجع نفسه، ص499.

11سورة الزمر، الآية 09.

12عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة من أسرار التعبير القرآني، دار المريخ، الرياض، 1983م، ص05، نقلا عن المثر السائر، لابن الأثير، ج1، ص115.

13 أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، ص232.

14 منير سلطان، الصورة الفنية في شعر المتنبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2002، ص149.

15 أحمد نصيف الجنابي، في الرؤية الشعرية المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1، ص199.

16 محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973، ص457.

17 إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، دار القلم، بيروت، ص22.

18 بشرى موسى الصالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث د ط، دت ، ص03.

19سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط3، 1993م، ص37.

20سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص32.

21المرجع نفسه، ص18.

22محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ص169.

23سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص194.

24 عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر، القاهرة، ص65.

25 تصوير الانفعالات النفسية في القرآن الكريم، صالح عزيز، مجلة التربية والعلم، ع1، 2004م، ص216.

26 عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في القرآن، د ط، دس ص15.

27 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص115.

28سورة الأعراف، الآية 176.

29 محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج1، ص482.

30 سورة البقرة، الاتيان، ص264-265.

31سيد قطب، التصوير في القرآن، ص35.

32 سيد قطب، في ظلال القرآن،دار الشروق، ج1، ص309.

33 سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط9، 2003م، ص 124، 125.

34 سورة القمر، الآيتان، 6-8.

35 ابتسام مرهون الصفار، التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد يوم القيامة، د ط، بغداد، العراق، ص111

36 ابن منظور، لسان العرب،ج6، ص4674.

37- سورة غافر، الآية 18.

38 سورة النازعات، الاتيان 8-9.